من آيات الله

فى البرق

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] وقال تعالى فى سورة الرعد: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد: ١٢-١٣].

فالله سبحانه وتعالى جعل من آياته العجيبة الدالة على قدرته البرق، والبرق يظهر سلطانه على أتمه حين يلمح بالليل.

وظاهرة البرق: ظاهرة ناشئة من النظام الكونى، ويعللها بعض العلماء: بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سحابة وجسم أرضى كقمة جبل مثلاً، ينشأ عنها تفريغ فى الهواء، يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق.

وفى الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر، نتيجة لذلك التصادم، وأياً ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون، كما خلقه البارئ وقدره تقديراً.

والقرآن الكريم حسب طبيعته يتخذ من هذه الظاهرة أداةً لوصل القلب البشرى بالوجود، وخالق الوجود، ومن ثم يقرر فى قوله تعالى: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾ أن آية من آيات الله أن يريهم البرق.

ورؤية البرق إشارة دالة على الرحمة المرسلة من عند الله، على يد هذا السحاب الذى ينطلق البرق من خلاله.

فإذا لمع البرق توقع الناس الغيث، واختلفت توقعاتهم له بين يأس ورجاء، وخوف وطمع. وذلك أن البرق وإن كان رسولاً من رسل الغيث، إلا أنه قد يجئ بالغيث وقد لا يجئ.

وهناك برق يسمى برق الخُلَّب، وهو الذى يبرق ولا يصحبه مطر، ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿**ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا**﴾ إشارة إلى أن لمعان البرق وإن طلع على الناس بما يبشر بالغيث، فإنه يضع المشاعر المترقبة للمطر، المتلهفة عليه، فى موضع متأزم، بين الخوف والرجاء.

والخوف والرجاء شعوران فطريان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة، شعور الخوف من الصواعف، التى تحرق الناس والأشياء أحياناً عندما يبرق البرق، أو الخوف الغامض من رؤية البرق، وما يوقعه فى الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل، وشعور الطمع فى الخير، من وراء المطر، الذى يصاحب البرق فى معظم الأحوال.

ويذكر علماء التفسير: أن الخوف ليغلب على الرجاء، وخاصة إذا كانت الحاجة إلى المطر شديدة والطلب له ملحاً، وهذه هو بعض السر فى تقديم الخوف على الطمع.

إذ كانت الآية الكريمة متجهة أولاً إلى من يقيمون حياتهم على ماء المطر، مثل سكان الصحارى، ونحوها، فهؤلاء إذا تأخر نزول المطر أياماً، وأمسكت السماء رحمتها قليلاً عنهم فزعوا، واضطربوا، وتعلقت أنظارهم بالسماء، يرقبون السحب ويرصدون مسيرتها.

فإذا لمع البرق بدا لهم منه الوجه الضاحك المبشر بالخير ففرحوا واستبشروا، ولكن سرعان ما يطلع عليهم شعور أسود كالح، يقطع عليهم هذه الفرصة كأنه يقول لهم: وما يدريكم أن وراء هذا البرق المطر ؟

ألا يجوز أن يكون برقاً خُلَّباً. وهنا يأخذ الخوف مكان الصدارة، على مشاعرهم شأن الحريص على الشئ المتلهف إليه، يغلب عليه الخوف على فقده أكثر من الطمأنينة إلى بقائه. وبعد أن كان من آيات الله ظاهرة البرق ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ عقّب بقوله ﴿ **وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها** ﴾ والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يخيل أن الأرض كائن حى، يحيا ويموت.

وإنها لكذلك فى حقيقتها التى يصورها القرآن الكريم، فهذا الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة، مطيعة لربها، خاضعة، خاشعة، ملبية لأمره، مسبحة، عابدة. والإنسان الذى يدب على هذا الكوكب الأرضى واحد من خلائق الله هذه، يسير معها فى كوكب واحد، متجه إلى الله رب العالمين.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى فى سورة الحج: ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً** ﴾ [الفرقان: ٤٨, ٤٩].

وقال تعالى فى سورة فاطر: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا** ﴾ [فاطر: ٢٧].

ففى إنزال الماء من السماء لفت إلى مظاهر خلق الله ونواميس كونه. فالله ينزل من السماء ماءً فيخرج به نباتاً مختلف الألوان والأنواع والأشكال.

ففى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض ينبهنا القرآن الكريم إلى صفحة الكون المنظور، لنشهد بديع صنع الله فى الماء، والإنزال والإنبات والإثمار.

فأنت أيها القارئ الكريم، ترى أن الآية: ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحى به الأرض بعد موتها** ﴾ أشارت إلى آيات كثيرة من شأنها أن توقظ فى الإنسان أحاسيس الشعور بقدرة الخالق سبحانه وتعالى، وتنبه الإنسان كذلك على جليل نعم الله التى أنعم الله عز وجل بها على الإنسان وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾.

يعقلون دلائل قدرة الله . . . ويعقلون دلائل نعم الله.

ويعقلون فهم القرآن الكريم فينتفعون، ويشكرون، ويحمدون.

* * *